# تجليّات المكان، أبعاده ودلالاته في شعر «نزار قباني»

أ.م.د. جمال طالبي قرهقشلاقي

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة فرهنكيان/ طهران

# The mystery of the place in Nizar Qabbani's poetry

Ass.Prof.Dr. The beauty of the students

Department of Arabic Language and Literature\ Farhangian University\ Tehran\ Iran

Jamal_talebii@yahoo.com

**Abstract**

The place in the literary works is the mother's womb, in which it forms itself as a dynamic and accelerating relationship between the creator of the literary work and the text and the audience, and turns into an all-encompassing artistic and literary richness. However, this requires an in-depth cultural understanding of the audience towards our emotional, historical, and political implications in literary works. The place played an important role in the formation of the poetry of Nizar Qabbani, a contemporary Syrian poet, and was not just a geographic dimension that was not pure. But the poet has given it a mystery and spiritual meanings. The place in qabbani poetry has different dimensions, indicating his special interest. The most important dimensions of the place in his poetry are the emotional, political and national, religious and historical aspects. The present study has examined the descriptive-analytical approach, the phenomenon of place and its implications in qabbani poetry, and has achieved some results including: The place in qabbani poetry is not just a geographic dimension, and has been used in three dimensions: emotional, political, and national, religious, and historical. Among the places of reference in qabbani poetry is as follows: Damascus signifies a passion for homeland, Beirut is a symbol of love and affection, Karbala is a symbol of resistance to the oppression and tragedy of Arab societies, especially occupied Palestine. Quds is a symbol of purity and resistance, and the chamber and exile signify tyranny and suppression in the Arab world. All of this has helped the beauty of qabbani poetry. The homeland in qabbani poetry sometimes also implies positive and sometimes negative, which is often tied to social and political issues.

**Key words:** contemporary Arab poetry, place, semantics.

**الملخص**

يشكل المكان الرحم الذي يتشكّل فيه العمل الأدبي ليتحول هذا التشكّل وفق علاقات ديناميكية متسارعة بين كلّ من المبدع والنص والمتلقي إلى ثراء شعوري ووجداني مترامي الأطراف الفنية والأدبية. إلا أنّ ذلك يستدعي في ذهن المتلقي المخزون الثقافي المترسخ لديه فيما يحمله هذا المكان من دلالة تاريخية أو نفسية أو سياسية و...

للمكان دور مهم في تشكيل القصيدة عند نزار قبّاني الشاعر السوري المعاصر؛ وذلك . على حدّ قوله . لم يكن مجرد بعد جغرافي منذ الأربعينات من القرن الماضي، بل حمّله الشاعر دلالات إيحائية واسقاطات روحية. وقد شكل تمسك قباني بالمكان جملة من الأبعاد التي تفسّر عنايته به. ومن أهم هذه الأبعاد ما يتعلق بالبعد النفسي، السياسي والقومي، والديني والتاريخي. هذه الدراسة بمنهجها الوصفي والتحليلي الذي يلائم مثل هذه الدراسات بحثت عن المكان ودلالاته في شعر قبّاني؛ واستطاع من خلال ذلك إلى الحصول إلى بعض نتائج، منها: أنّ المكان لم يكن حدثا طارئا في شعر نزار قباني إنما هو رؤية خاصة على حدّ قوله. هذه الرؤية تجلّت في ثلاثة أبعاد رئيسة أي: النفسية والعاطفية، الوطنية والسياسية، والدينية والتاريخية. وقد تحوّل المكان في شعره إلى رموز فنية حملت دلالات منها: دلالة دمشق إلى الحنين والاشتياق، دلالة بيروت إلى الحبّ، دلالة كربلاء إلى المقاومة أمام الظلم والطغيان، ومأساة الدول العربية وعلى رأسها فلسطين المحتلة، دلالة القدس إلى المقاومة والقداسة، دلالة السرداب والمنفى إلى انحسار الحرية في الدول العربية،

و... قد ساهمت هذه الدلالات في التشكيل الجمالي لنصوصه الشعرية. وكشفت أخيرا أنّ الوطن / المكان في شعره لم يتّخذ بعدا جغرافيّا محددا، بل حمل دلالات منها سلبية ومنها إيجابية تتصل بالقضايا الاجتماعية والسياسية.

**الكلمات الرئيسة:** الشعر العربي المعاصر، المكان، الدلالة،

**المقدمة**

إنّ المكان وأبعاده ودلالاته ظاهرة لا يمكن أن نغفل عنها في الدراسات الأدبية خاصّة الشعر. بناء على ذلك، كثرت الدراسات المتعلّقة بالمكان في العصر الحديث، ويعدّ غاستون باشلار أوّل من تحدّث عن فنيّة المكان في الإبداعات الأدبية ثمّ تابعه يوري لوتمان، فتنامت الدراسات المتعلّقة بالمكان بعدهما.

والحديث عن المكان ظاهرة متميّزة في الشعر العربي الحديث والمعاصر، وله دور بارز في التشكيل الجمالي للنّصوص الأدبية. و«الشاعر العربي الحديث . بغضّ النظر عن توجّهه وانتمائه . في الكثير من المواقف الشّعرية، لم تعد تحدّه الحدود الجغرافية الوهمية التي وضعها الاستعمار الغربي، فأضحت هموم كلّ الدول همومه، فمصر مرتبطة ببغداد، وبغداد مرتبطة بدمشق و... فالروابط الدينية والإنسانية كانت أقوى من الروابط المكانية والجغرافية المحدودة» (خرفي، 2006م، 25).

تعتبر الفضاءات المكانية من أهم سمات شعر نزار قبّاني، وقد عبّر الشاعر باستحضاره الأمكنة عن دلالات عاطفية، وقومية وتاريخية وحضارية. وقد فسّر نفسه اهتمامه بهذه الظاهرة بـ «أنّ شعره كلّه مكان، وأنّ شعره منذ الأربعينات كان عبارة عن رائحة المكان، مؤكدا أنه لا هرب من المكان، لأنه هو الذي يملي على الشاعر صوره ومشاعره ويعطيه مادته الشعرية» (حيدوش، 2001م: 129.128). إذن يمكن أن نقول بأنّ المكان في شعر قباني لم يكن حدثا طارئا؛ إنما هو رؤية خاصّة تشكلت عنده وعبّر بها عن دلالات معينة حاول أن يوصلها إلى المتلقي.

نزار قبّاني من كبار شعراء العرب، والدراسات التي تصدّت لشعره وخصائصه كثيرة؛ لكنّ مجال البحث في دراسة المكان ودلالاته في شعره مازال مفتوحاً. ونظراً لتأكيد الشاعر على أنّ شعره كلّه مكان منذ الأربعينات، تولّدت في نفسنا رغبة في أن نخوض بدراسة هذا الجانب المغفول من شعره، لأنّنا نؤمن بأنّ دراسة المكان تعتبر من المداخل الرئيسة لدراسة النّص الأدبي خاصة شعر قباني الذي تعامل معه بصورة ملحوظة، فنأمل أن يضيف هذا البحث المتواضع بمنهجه الوصفي والتحليلي شيئا إلى الدراسات السابقة عنه، ويجيب عن الأسئلة الآتية:

1 . ما أشكال الصورة الفنية للمكان في شعر نزار قباني؟

2 . كيف تشكلت أبعاد المكان ومستوياته في شعر نزار قباني؟

3 . ما الدلالات التي يحمله المكان في شعر قباني؟؟

**سابقة البحث**

والواقع أنّ المكان وأبعاده ودلالاته في شعر نزار قباني لم يدرس من قبل في ضوء دراسة مستقلّة، ولم نعثر على شئ ذي بال إلا إشارات موجزة هنا وهناك ضمن بعض بحوث. أما المكان بصورته الكلية فهناك بعض دراسات أدبية ونقدية تستقرئ به النصوص الأدبية، أهمها:

. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984.

وهناك بعض بحوث ناقشت المكان ودلالاته في شعر بعض شعراء العرب المعاصرين أهمها:

. توظيف المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر، رسالة جامعية قدمت لنيل درجة الدكتوراه عام 2012 بجامعة القاهرة.

. جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، وهي أيضا رسالة جامعية قدمت لأخذ الدكتوراه من جامعة منتوري قسطنطنية عام 2006م.

. جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة، لـ «مهدي عبيدي» من منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011.

هذه الدراسات أهم ما أجريت حول المكان ودلالاته، واستفدنا منها في الإطار النظري لبحثا هذا، على الرغم من أنها لم تتناول شيئا من المكان في شعر نزار قباني.

**الإطار النظري للبحث**

حظي المكان في النصوص الشعرية باهتمام الباحثين في ظلّ التطور المنهجي والعلميّ، واكتسب طابعا علميّا لا يمكن أن نغفله في الدراسات الأدبية. اتّخذت علاقة الشاعر المعاصر بالمكان أبعادا عديدة يمكن أن يأتي نتيجة عوامل عدة؛ سياسية، تاريخية، دينية، ونفسية. ولا شك أن «علاقة الإنسان بالمكان علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المكان، بل ويغيّر من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل» (إسماعيل، 2002م: 87).

ليست علاقة الإنسان بالمكان سهلة بل هي معقدة أحيانا كثيرة؛ هناك بعض أمكنة يحبّها الإنسان، وأمكنة أخرى يرفضها ولا يرغب فيها. «إنّ الإنسان . طبقا لحاجته . ينتعش في بعض الأماكن، ويذبل في بعضها، وقد تكون نفس الأماكن جاذبة أو طاردة» (لوثمان، 82).

يمثّل المكان هويّة الإنسان و«الكيان الي يحتوي خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه» (النصير، 1980م: جـ2: 16). والشاعر يلعب دورا بارزا في هذا التفاعل، ولا يكون المكان مؤثرا في الإبداع الأدبي إلا إذا كانت له دلالة. تظهر أهمية المكان وتأثيره من خلال علاقته ببقية العناصر الأدبية التي تتفاعل معا لتخلق متعة لدى المتلقّي، وهذا يؤدي إلى تعميق الصّلة بين العمل الأدبي والمتلقي. ولا شك في أنّ الشاعر في علاقته مع المكان سيكون أكثر عمقا وإدراكا لمعطياته في الإبداع الأدبي وسيضفي عليه صورا جمالية.

أصبح المكان في عملية الإبداع عند الشعراء المعاصرين أكثر تناغما وفاعلية إذ أصبح «الفضاء الأمثل الذي تنهل منه عملية الإبداع لدى الشاعر تصوراتها وشعورها، وذلك عبر عملية التجادل بينه وبين الذات» (عقاق، 2001م: 279). ومن جانب آخر، يعمق الانجذاب إلى المكان واستنطاق دلالاته النفسية، والقومية، والتاريخية الحضارية رؤية الشاعر في تفاعله مع متلقيه. وليس أدلّ على أهمية المكان في العمل الإبداعي من رؤية باشلار التي جعل المكان بمثابة العمود الفقري لذلك العمل حين قال: «فالعمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته» (باشلار، 1984م: 6.5).

والخلاصة هي أنّ هوية الشاعر ترتبط بمكانه؛ وهويته هي التي تحدد المكان الذي أصبحت جزءا من حياته. والمكان بؤرة وحيدة يتنفس الشاعر من خلاله بحيث لا يمكن الاستغناء عنه، فعلاقة الإنسان بالمكان علاقة ذات جذور تاريخية وهي تنبع من عدّه وطنا وهوية.

**نزار قبّاني وتجربة المكان**

يعدّ المكان علامة متميزة في مسيرة الشعر العربي الحديث والمعاصر، وقد لعب دورا مهما في التشكيل الجمالي للإبداعات الشعرية. نزار قباني واحد من الشعراء العرب المعاصرين الذين هيمن المكان على كثير من قصائده، وذلك يعدّ . على حد قول نزار فيما سبق . من أهم مكونات شعريته منذ الأربعينات. إذ يمثّل الخلفية التي تقع فيها الأحداث. والظاهرة المهمة التي نلاحظها في شعر نزار أنه تعامل مع المكان بشكل جيّد، و«قدّم المكان على الإنسان كما قدّمه أيضا على الزمان، فهي في سيرته الذاتية لم يعن بالإنسان قدر عنايته بالمكان. فكانت سيرته هي سيرة مكان، هي سيرة دمشق المكان وهي سيرة البيت فقط» (النابلسي، 1986م: 97).

إنّ التفاعل مع الأمكنة المألوفة في شعر نزار يتسم بالثراء إذ يكفي القول إن هناك العشرات من العناوين المكانية وضعها لقصائده، منها: «ليلة في مناجم الذهب، من ملفات محاكم التفتيش، آخر عصفور يخرج من غرناطة، تقرير سري جدا من بلاد قمعستان، كتابات على جدران المنفى، أربع رسائل ساذجة إلى بيروت، محاولة تشكيلية لرسم بيروت، القصيدة الدمشقية، و... ». ولهذه المسأله أهمية كبيرة لأن اسم المكان عندما يأتي في عنوان القصيدة، تكون له خاصية مميزه إذ «يجعل من الاسم في ذاته دلاليا أوليا

يفضي . فيما بعد . شيئا فشيئا إلى كلّ الدلالات الأخرى ويظلّ في الوقت نفسه حاويا لها في شحنته الداخلية بما هو العلامة الأولى في النص» (منير، 1997م: 186)

استطاع قباني بارتباطه بالأمكنة خاصّة الوطن أن يحمل رؤاه وتصوراته الخاصة بها ونقلها إلى المتلقي عبر قصائده، كما استطاع أن يصوّر أحاسيسه تجاه تلك الأمكنة وأن يستدعي دلالات تتصل بعالم المكان. خرج المكان في شعر قبّاني عن مجرد فضاء مادي إلى فضاءات إنسانية تنبض بالحركة. نزار أعلن في كثير من مواقفه الشعرية خروجه من الحدود الجغرافية الوهمية التي وضعها الاستعمار الغربي فأضحت هموم كلّ الدول العربية همومه، فلذلك لم يكن له وطن خاص، بل يقول:

**«كلُّ مَدينةٍ عَربيةٍ أمّي / دِمشق، بَيروت، القَاهرة، بَغداد، الخُرطوم، الدَّار البيضَاء / بِنغازي، تُونس، عَمّان، الرّياض، الكُويت، الجَزائر، أبوظبي / وأخواتها / ... ولذلك لا أدخلُ مَدينةً عربيةً إلا وتُناديني: / يا وَلدي / لا أطرقُ بابَ مَدينةٍ عربيةٍ / إلا وَأجد سَريرَ طُفولتي بِانتظاري»** (قباني، د.ت، 161.162).

يلاحظ القارئ من خلال هذه السّطور كيف تعامل قبّاني مع المكان، وكيف رسم علاقة وطيدة بينه وبين المكان خاصّة العواصم العربية. إنه يريد أن يقول إن جميع البلدان في العالم العربي وطنه وأن همومها هي همّه، وإذا حل بأرض العرب شئ فكأنه حل بأرضه وأهله.

**أبعاد المكان في شعر نزار قبّاني**

للمكان في شعر نزار قباني أبعاد مختلفة قسمناه إلى ثلاثة أقسام تسهيلا لدراستنا، وهي البعد النفسي، والسياسي والقومي، والديني والتاريخي.

**1 . البعد النفسي للمكان**

**أ . دمشق ودلالاته النفسية**

تعدّ الدلالة النفسية من أهم الدلالات التي ترتبط بالمكان، لأنّ «الإحساس بالمكان إحساس له أصالته فهو هوية تاريخية ووطنية ونفسية» (بسام علي، 267). والحقيقية التي ظهرت للباحث بعد استقراء المكان في شعر نزار قباني، هي أنّ المكان خاصّة دمشق، في بعده النفسي أكثر حضورا في شعره مقارنة بالأبعاد الأخري. وهذا يكشف عن العلاقة النفسية الوطيدة بين الشاعر ومسقط رأسه.

تمثّل دمشق فضاء مكانيا لنصوص عديدة في تجربة نزار الشعرية، بل إنها تحتل المرتبة الأولى مكانيا من حيث الاستدعاء محليا وعربيا حيث بلغ عدد استدعائها أكثر من مائتي مرة. هذه المدينة وجدت حضورا قويا في شعر قبّاني؛ وقد وضع الشاعر اسمها عنوانا لأكثر من عشرة دواوينه؛

دمشق في شعر قباني جنّة لا يماثلها مكان آخر على وجه خارطة العالم، وقد لعبت دورا بارزا في مسيرته الشعرية بحيث أثّرت على لغته وأبجديته تأثيرا كبيرا. أكّد نزار في لقاء صحفي له على أهمية دمشق في إبداعاته الفنية قائلا إنّه «في دمشق يشعر أنه في مملكته ويتصور صوته فيها أجمل، لأن العصفور يغني دائما بصورة أفضل حين يقف على الشجرة التي ولد عليها وعاش في ظلالها، وأنه في كلّ مطار في العالم نزل فيه وجدوا في حقائبه قمرا أخضر وشجرة صفصاف وعريشه ياسمين دمشقية وأنه منذ أربعين عاما وهو يحمل مآذن دمشق على كتفيه ويطوف بها العالم، وأنه سوف يبقى كذلك حاملا دمشق وأنهارها وأشجار خوخها، وتفاحها، ورمانها وعنبها حتى آخر لحظة في حياته» (حيدوش، 2001م: 132).

إنّ مدينة دمشق هي الملهم الأول لنزار في تجربته الشعرية فلذلك كان من الطبيعي أن يشعر الشاعر بحنين جارف إليها كلّما اغترب عنها قسرا أم اختيارا؛ وهذا الحنين يتجلّى بوضوح في قصيدته المعنونة بـ «خمس رسائل إلى أمي» التي أصبحت دمشق جزءا لا يتجزأ من أحاسيسه فهي ماثل أمام عينيه، والشاعر يتمنى العودة إليها:

**«مَضَى عامانِ ... يا أمّي / ووجهُ دمشقَ / عُصفورٌ يُخربشُ في جَوانِحنا / يَعُضُّ على سَتائرِنا / وَينقرنا برِفقٍ من أصابِعنا / مَضى عَامانِ يا أمّي / وَليلُ دمشقَ / فُلُّ دمشقَ / دورُ دمشقَ / تَسكنُ في خَواطرِنا / مَآذنُها .. تُضيءُ على مَراكِبنا / كأنَّ مآذنَ**

**الأمويَّ قد زُرعت بِداخلنا / كأنَّ مَشاتلَ التُّفاحِ تعبقُ في ضَمائرنا / كأنَّ الضوءَ والأحجارَ / جاءت كلُّها مَعنا»** (قباني، نزار، الرسم بالكلمات، د.ت، ص129.130)

إنّ المتأمل في السطور السابقة يجد أن نزار لخّص فيها مأساته حين ابتعد عن مدينته دمشق مجسدا حنينه العارم إليها في أجمل صورة، إذ عبّر عن مشاعره بعد مضيّ عامين عن هجرته التي أبعدته عن أهله ووطنه، فذكر الرموز الدمشقية التي تؤثّر فيه وتؤلمه بسبب الهجرة والبعد عنها: «وجه دمشق عصفور يخربش في جوانحنا / يعض على ستائرنا». والمراد من «يعض على ستائر» دلاليا إنما هو الأسرار التي كانت بين الشاعر ومدينته دمشق. ذكر نزار ههنا ليالي دمشق وفلها وبيوتها التي تدلّ على صلته الوثيقة بأرضه ومدينته. والحديث عن المآذن الدمشقية التي تنير الطريق قد أعطى بعدا نفسيا وثقافيا لشعر نزار وهذه المآذن تشكّل الخلفية الدينية للشاعر. أما «مشاتل التفاح» وعبيرها ومضيّ عامين عن الشعور بشذاها، فهي رمز آخر ذكره الشاعر ليرسم البعد الزمني بينه وبين دمشق، والنتيجة المحتومة لكلّ ما ذكرنا هي أن الوطن الذي تمثّل في مدينة دمشق لايغيب عن ذاكرة نزار وهو يشكل الخلفية الروحية والثقافية له على الرغم من مضي عامين عن هجرته. و«مما تجدر الإشارة إليه أن البعد النفسي يأخذنا إلى ظاهرة التكرار في النصوص الشعرية، والتكرار يحمل دلالات نفسية تتعلق بالشاعر ونفسه وما يخالجها من عشق وحنين إلى المكان كما أن الشاعر حينما يكرر ألفاظا بعينها قد تكون أسماء أو أماكن أو ما شابه ذلك لدلالة نفسية شعورية فيكون التكرار بؤرة تلك الدلالة النفسية الشعورية أو قد يكون مركز ثقلها» (أبوالعمرين، 2014: 50). وقد كرر الشاعر كلمة دمشق ثلاث مرات متوالية ويكرره في السياقات الأخرى؛ تعود دلالة هذا التكرار إلى نفسيته وما يخالجها من عشق وحنين إلى دمشق. وهذا الحس العميق بالمكان لا يتأتى إلا إذا كان «هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض / الأم ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا» (عثمان، 1988م: 6).

وأحيانا نرى الشاعر يتحدّث عن الآلام التي انتابتها اثر الاغتراب وحنينه إلى دمشق، حيث يقول في رسالته الخامسة إلى أمّه:

**«أتى أيلولُ أمّاه / وَجاءَ الحُزنُ يحملُ لي هَداياه / وَيتركُ عندَ نافِذتي / مَدامِعَه وَشكواه / أتَى أيلولُ .. أينَ دمشقُ؟ / أين أبي وَعيناهُ / أينَ رحابُ مَنزلنا الكبيرُ وأينَ نَعماه؟/ أينَ طُفولتي فيه / دمشقُ دمشقُ / يا شِعراً / على حَدقاتِ أعينِنا كَتبناهُ»**

ترك قباني هنا الحنين والاشتياق وتحدث عن الآلام والأحزان التي تصحب الإنسان المغترب عن وطنه دائما بدءا من «أيلول» الذي تذكّره المأساة الفلسطينية؛ ثمّ انتقل بأسلوبه الخاصّ في السخرية، وجعل «الحزن» يحمل الهدايا التي هي رمز للسّلام والحبّ والتواصل؛ وهذا تعبير جمع فيه الضدين معا أي «الحزن والهدية» التي هي دموع الألم. ثمّ قارن الشاعر بين تلك الأحداث ودمشق الحبيبة ومزجه بعتاب رقيق على وطنه لأنّه تلهّى بنفسه عن المأساة، وأخيرا ربط ذلك كله بما يحزنه شخصيا (أين أبي وعيناه) ليجمع الأحزان في سلاسل متوالية. ثمّ يسأل عن منزله الكبير الذي ربما يقصد منه الوطن الذي فقد طفولته فيه. غير أن نزار آثر أن ينهي رسالته بغير ذلك الحزن وكأنه يريد أن يقول: على الرغم من أي شيء فالوطن أعز الأشياء عنده فلذلك يكرر اسمها ويقول: «دمشق دمشق».

والعلاقة الروحية النفسية بين الشاعر ومدينة دمشق قد بلغت إلى درجة شبّه حبيبتها في جمالها وبهائها بدمشق ويرى ذروة جمالها أن تبلغ جمال دمشق:

**«ألاحظتِ؟/ كم تُشبهينَ دمشقَ الجَميلةَ / وكم تُشبهينَ المآذنَ / وَالجامعَ الأمويَّ»**. (قباني، 1974م: 21).

نلاحظ في السطور المذكورة أن مدينة دمشق بمسجدها الجامع ومآذنه شبّهت بها الحبيبة وهذا يدلّ على مكانة دمشق الممتازة التي تحوّل من ماديته وجموده إلى مكان يفيض بالشاعرية والحيوية. و«تمثّل علاقة نزار بدمشق مثلا أعلى للانتماء الوطني، فعلى الرغم مما أفرغه نزار من شحنة عاطفية في شعره، لم يتغير مسار انتمائه، ولم يتلوّن بأي وطن أو حضارة عاش فيها وعايشها، إذ بقي مشدودا إلى المركز العاطفي والفكري والثقافي الذي أكسبه قيمة وجود وأصالة انتماء» (بيك، 2007م: 88). فلذلك نرى الشاعر أضفى على حبّه لمدينة دمشق المتمثلة في دمشق، معاني صوفية رائعة:

**مَسقطُ رأسي في دمشقَ الشَّامِ / هل واحدٌ من بينكم / يَعرفُ أين الشَّامُ؟ / هل وَاحدٌ من بينكم / أدمَنَ سُكنى الشَّام؟ / رَواه ماءُ الشَّام / كَوَاهُ عشقُ الشَّام / تَأكَّدوا يا سَادتي / لن تَجِدوا في كلِّ أسواقِ الوُرودِ وَردةً كالشَّام / وَفي كلِّ دَكاكينِ الحُلى جَميعها / لؤلؤةً كالشَّام / لن تَجِدوا مدينةً حَزينةَ العَينينِ مثلَ الشَّامِ.**(قباني، 1999م: جـ 6: 128)

نلاحظ في هذه المقطوعة أنّ نزار كرر لفظة الشام ثماني مرّات، وقد قرن دمشق بالولادة، والسكونة، والماء، والعشق، والورد، واللؤلؤة؛ هذا يعني أنّ الشاعر يتلذذ هنا بذكر دمشق والشام وتكرارهما. والطريف أنّه استخدم ما نسمّيه في البلاغة بـ «تجاهل العارف» فطرح بعض أسئلة وهو يعرف الجواب، غير أنه أراد أن يؤكّد عشقه وحنينه لدمشق، ويثير عواطف المتلقّي ليقرّ معه أنّه ليس لدمشق مثيل.

يقول نزار في قصيدة «أنا يا صديقة متعب بعروبتي»:

**قَمَرٌ دمشقيٌّ يُسافرُ في دَمي / وَبلابلٌ وَسَنابلٌ وَقبابٌ / الفلُّ يَبدأ مِن دمشقَ بَياضُه / وَبِعطرِها تَتَطيَّب الأطيابُ / وَالماءُ يَبدأ من دِمشقَ فَحيثما / أسندتِ رأسك جدولٌ يَنسابُ / وَالحبُّ يَبدأ مِن دِمشقَ فأهلُنا / عَبَدوا الجَمالَ وَذوبُوه وَذَابوا / وَالخيلُ تَبدأ مِن دمشقَ مَسارها / وَتَشدُّ للفتحِ الكبيرِ ركابٌ / وَالدَّهرُ يَبدأ من دِمشقَ وَعندَها / تَبقى اللُّغاتُ وَتحفظُ الأنساب / وَدِمشقُ تُعطي للعروبةِ شِكلها / وَبِأرضِها تَتَشكّلُ الأحقَابُ.**

ركّز قباني في هذه المقطوعة على جزئيات المكان / دمشق أي: «البلابل، السنابل، القباب، الفلّ، الماء، الجدول» وكرّر اسم دمشق سبع مرّات، وهي ترتبط في كلّ مرة بدلالات شتى منها: الفلّ والماء والحبّ والخيل والدهر والعروبة. يدل الفل والماء على الجمال، ويرى الشاعر أنّه يبدأ من دمشق، وبذلك يجعلها مهد الجمال. كما أنّ الخيل والفتح رمزان على القوة والحرب من أجل استعادة الحقوق، وهما أيضا يبدءان من دمشق وبذلك جعلها مهدا للعروبة.

دمشق هي الشّمش التي تدور حولها باقي المدن العربية ليبرز قدمتها والحضارة التي جسّدتها منذ بدء الخليقة. والخلاصة هي أنّ الانتماء إلى دمشق يعكس المكان الذي يشكل «دلالات متعدة في شعره وقصائده هي: الولادة، الجمال، الشموخ، الحب، الطفولة، الأصالة العربية، العروبة، وكلّها مرتبطة بمعاني الخصوبة» (القواسمة، 2009م: 103).

**ب . بيروت وجدلية الشاعر معها**

لم يتعامل نزار قباني مع بيروت بشكل واحد، بل أخذت هذه المدينة لدى الشاعر بعدين متناقضين: **الأول:** أنّه أحبّها حبّا عميقا وأضفى عليها ثناء خاصّا. وإذا كانت دمشق أمّ الشاعر فأصبحت بيروت معشوقته التي تمثّل جغرافية الشعر وجغرافية الأرض . على حدّ تعبيره . فهي جديرة بأن يوضع اسمها في عنوان ديوان له، فيه خمس قصائده: «يا ستّ الدنيا يا بيروت، سبع رسائل ضائعة في بريد بيروت، بيروت محظيكم .. حبيبتي، إلى بيروت الأنثى ... مع الاعتذار، بيروت تحترق .. وأحبك».

وفي تعليل حضور مدينة بيروت / المكان في شعر قبّاني، يمكن أن نقول إنّ بيروت تبلله بأمطار الشعر، وتشعل به شهوة الكتابة، فهي عنده أعظم من نيويورك وأهم من طوكيو. (حيدوش، 2001م: 145). ومن جانب آخر كان نزار يشعر فيها بحرية كبيرة بحيث لم تذكرها إلا مقارنة بمفردة «الحرية» ولأنها لم تفتّش عن آرائه ولم تضيّق الخناق عليه ولم تطبق عليه الأساليب القمعية، وبهذا يمكن أن نقول إنه لم يكن لدى الشاعر بديلا لبيروت سوى بيروت. يقول في قصيدة «إلى بيروت الأنثى مع الاعتذار»:

**آه يا عُشّاق بيورتِ القُدامى / هل وجدتُم بعد بيروتَ البديلا؟ / إنّ بيروت هي الأنثى التي / تمنحُ الخَصب وتُعطينا الفُصولا**

كان معظم شعر قباني فيما يتعلّق ببيروت رثاءً إثر النكبات والآلام التي أصابتها. يقول في قصيدة «بيروت محظيتي .. بيروت حبيبتي»:

**سامحينا / إن تركناك تَموتينَ وحيدة / وتسلّلنا إلى خارجِ الغرفةِ نَبكِي كَجنود هاربينَ / آه كم كُنّا قبيحينَ وكنّا جُبَناء / عندما بعناكِ يا بيروتُ في سوقِ الإماء / آه يا بيروتُ / يا صاحبةَ القلبِ الذّهب / سامحينا / إن جَعَلناكِ وَقودا وحطَب / للخلافات التي تَنهشُ من لَحمِ العَرَب / آه يا سَيّدتي كم نَتضعذّب / عندما نقرأ أنّ الشّمسَ في بيروت صارت / كرة في أرجلِ المُرتزقين.**

هذه السطور الشعرية واضحة تكشف عن مدى حبّ الشاعر لبيروت؛ أما الشاعر نفسه فيقول في تفسير حبّه لها إن «كلّ مدن العالم بالنسبة إليه كانت صالات ترانزيت وفنادق صالحة للمبيت ليلة واحدة أو ليلتين على الأكثر، ولكنه بعد بيروت لم يستطع أن ينام في أيّ مكان، ولا أن يكتب في أيّ مكان، فكلّ العالم بالنسبة إليه فندق من الدرجة الثانية وبيروت هي البيت، وأن كلّ العالم بلا جدران وبيروت هي السقف، وكلّ العالم صحراء وبيروت هي الماء، وكلّ الجغرافيات تفرعات وهوامش وبيروت هي الأصل، وأنه من خلال تعامله الشعري مع عشرات المدن اكتشف أن بيروت نسخة لا تتكرر في تاريخ الشعر، وأن الشاعر الذي لا يتخرج من بيروت أو لا يتشكل في بيروت أو لا يعتمد في بيروت أو لا تنشر أشعاره فيها يبقى شاعرا غير مكرس، ولا يصل إلى مرتبة النجومية وإنما يبقى في قائمة شعراء الكوميديا» (نفس المصدر: 143).

**والثاني:** أما الشاعر فأصيب بتنازع جدلي مع بيروت في قصيدة بلقيس فكشف عن الوجه الآخر لها بعدما توفيت امرأته العراقية في حادث انفجار السفارة العراقية فيها وأعطى لها دلالات سلبية إلى حدّ أصبحت بيروت رمزا للضياع والمخاطر. والموقف الجدلي من بيروت هو عنصر بارز في شعر قباني والمقصود به الصراع الذي تَوَلد في بعد مقتل بلقيس بين النقمة على المدينة والتعاطف معها. وهذا ما يترجمه الشاعر في أكثر من تفاعل نصي في مدينة بيروت. ففي قصيدة «سبع رسائل ضائعة في بريد بيروت» يقول:

**يا حبيبيةُ / بعدَ عامينِ طويلينِ من الغُربةِ والنّفي / تذكّرتُكِ في هذا المساء / كنتُ مجنونا بعينيكِ / ومجنونا بأوراقي.**

يتضح من هذا المقطع أن الشاعر يتفانى روحا ودما وحرفا في حب بيروت. أما موقف الشاعر الجدلي من بيروت فيتطور ليصل أحيانا إلى اتخاذ الشيء وضده في وقت زمني متقارب. ففي عام 1981 قتلت زوجته بلقيس في حادث انفجار السفارة العراقية في بيروت، فأصدر ديوانه بلقيس تضمن قصيدة في رثاء زوجته قائلا في ثناياها:

**وبيروتُ التي قتلتكِ لاتدري جريمتها / وبيروتُ التي عَشقتكِ تَجهلُ أنها قتلت عَشيقتها / وأطفأت القمرَ.** (قباني، 1999م: جـ6: 36).

وأردف قائلا:

**بيروتُ تقتلُ كلّ يوم واحدا منّا / وتبحثُ كلّ يوم عن صحيّة / قتلوكِ في بيروت مثل أيّ غزالة / من بعدما .. قتلوا الكلامَ** (نفس المصدر: 26).

إذا كانت دمشق موطن نزار، وهي المكان الإيجابي بالنسبة له، فتقع في المقابل بيروت التي تمثّل المكان السلبي أو المكان المضاد للشاعر والواقف ضد تحقيق أحلامه وآمال شعبه في بعض قصائده التي ذكرنا بعض نماذج منها.

يتضح من خلال ما سبق أن قتل زوجته هو الذي أشعل فتيل النص الإبداعي وساقه إلى التفاعل السلبي مع بيروت بخلاف وجهته السابقة أي أنه يتناغم معها ويتنافر أخرى. ولعل السبب يعود إلى نفسية نزار المتكسرة، فلهذا لايخشى أحدا ولا يتردد في قول ما يريد أن يقوله صراحة.

**2 . المكان ودلالاته الوطنية والسياسية**

غادر قباني بيروت عام 1982 سنة واحدة بعد مقتل زوجته وبداية الحرب اللبنانية، حيث ارتحل بين سويسرا وانجلترا. وبعد هذه السنة توقف نزار عند الفجيعة العربية التي وقعت عام 1967 ليحدث نقلة هائلة في مسيرته الشعرية، فتحوّل إلى شاعر سياسي تناول في قصائده القضايا الوطنية والقومية والسياسية. بعد هذه النقلة أصبح للمكان في شعر نزار دورا ملحوظا استدعاه ليعبّر عن انفعالاته القومية والسياسية ويطرحها على أرض المتلقي ليلمسها ويشعر بها. ومما تجدر الإشارة إليه «أن البعد الوطني والسياسي قد يتجلّى في النهوض مع أحداث الأمة من هزائم وانتصارات ورفض للاستعمار والذلّ والهوان» (أبوالعمرين، 52). وهو الذي حول نزار «من شاعر يكتب شعر الحب والحنين لشاعر يكتب بالسكين» (قباني، 1999م: جـ 6: 475).

لقد تركت الأحداث السياسية التي مرت بها الدول العربية بصمات واضحة في الإنتاج الشعري عند قباني، وأصبح الوطن الهاجس الأول له، ولعب دورا بارزا في إثارة الشعور والإحساس الوطني، والانتماء للمكان / الوطن، ورفض الذلّ والهوان. تجلّى المكان في بعديه الوطني والسياسي في شعر نزار بدلالاته مختلفة في المواضيع التالية:

**أ . الوطن**

يعدّ الوطن من الناحية السياسية مكانا أثيرت حوله جدلية عنيفة في شعر قبّاني. وإذا استقرأنا أوصاف الوطن في شعر فهو «المصلوب فوق حائط الكراهية» تارة، وتارة أخرى هو «المكسور مثل عشبة الخريف» وهو «الغارق بالنزيف» تارة ثالثة، وأوصاف أخرى تدلّ على تفكك الوطن في وجهة نظره. (نفس المصدر: 108). يبدو أنّ الوطن في شعر قباني لم يتّخذ بعدا جغرافيّا محددا فيما سبق. والذي يمكن استنتاجه من الأشعار التي تحمل دلالات سلبية بالنسبة للوطن هو أنّ الشاعر يبحث عن انتماء أسمى يجسّده في وحدة الدول العربية. هذا يعني أنّ الوطن في وجهة نظر قبّاني يعني الوحدة في العالم العربي، وكلّما غابت هذه المقولة عن العالم العربي فيصبح الوطن مفككا منقسما:

**لا .. / ليسَ هذَا وطني الكبيرُ / لا.. / ليس هذا الوطنُ المربَّعُ الخَاناتِ كالشَّطرنجِ / وَالقابعُ مثلَ نَملةٍ في أسفلِ الخَريطةِ / هو الذي قالَ لنا مُدرِّسُ التّاريخِ في شَبابنا / بأنّه مَوطِننا الكَبيرُ** (المصدر نفسه: 51).

إنّ رؤية الشاعر للوطن الذي صارت كمربع خانات الشطرنج تفصح عن شعوره بالإحباط؛ لأن الوطن صار مفككا ومنقسما وأصبحت الحرية فيه سجينة. هذه السطور الشعرية تترجم معاناة الانتماء عند نزار حينما يتفجر غضبه على هذا الواقع المفكك.

والملاحظة المهمة هي أنّ قبّاني رسم صورة ضبابية للوطن كلّما تحدّث عن فقدان الحريّة في البلدان العربية، والقمع والاستبداد فيها:

**أحاولُ منذُ الطُّفولةِ / أن أتَصَور شكلَ الوَطنِ / رَسمتُ بيوتاً / رَسَمتُ سُقوفاً / رَسمتُ وُجوهاً / رَسمتُ وجوهاً مطليةً بالذَّهَبِ / رَسمتُ شَوَارعَ مَهجورةً / يُقرفصُ فيها .. لكي يَستريحَ التَّعب / رَسمت بلاداً تُسمّى مَجازاً / بلادَ العَربِ** (المصدر نفسه:343).

والوطن كلّما عانى من فقدان الحرية، وسيادة القمع والاستبداد، فهو سجن، ومشنقة، ومنفى. فلذلك يقول:

**أرسِمُ الوطنَ على شِكل سِجنٍ / أرسِمُ الوطنَ على شِكل مِشنَقَةٍ / إذا كانَ الوطنُ مَنفيّاً مثلي** (المصدر نفسه: 125.124).

والوطن الذي لم تكن فيه الحرية تخاف منه النجوم وتفرّ منها الطيور:

**حَتى النُّجومُ تَخافُ مِن وَطني / وَلا أدري السَّبَبَ / حتّى الطُّيورُ تَفِرُّ من وَطني / وَلا أدري السَّببَ**(المصدر نفسه: 61).

**ب . السرداب**

ومن الأمكنة التي وردت في شعر قباني مرتبطا بالوطن هو السرداب. غير أنّه أخذ مفهوما سلبيا فيدلّ على عدم إحساس الآخرين بالإنسان العربي الذي يعيش في الدول العربية. لأن صورة السرداب تقيم احتفالية المكان المغلق على فضاءات التيه والاغتراب وهي فضاءات تستمرّ في إنتاج الأمكنة من خلال بحث مشكلة الوجود في المكان، والذي تحوّل بفقده من مشكلة اتماء إلى مشكلة وجودية. (انظر: مجناح، 2008م: 232). وقد تبلغ حدته إلى أنّهم يحسبون الإنسان العربي نوعا من الذئاب:

**خَمسةَ آلافِ سنةٍ / وَنحن في السَّردابِ ؟ ذُقونُنا طَويلةٌ / نُقودُنا مَجهولةٌ/ عُيوننا مَرافِيء الذِّبابِ / النّاس يَجهلونَكم / في خَارج السَّردابِ / النّاس يَحسبونَكم / نُوعاً من الذِّئابِ** (الاعمال السياسية الكاملة: 486.485).

**ج . قمعستان**

وظّف نزار بعض مفردات المكان بصورة خيالية وحمّلها دلالات تكشف عن الاستبداد السائد في الوطن العربي؛ منها «قمعستان» الخيالية التي ادّعى الشاعر أنّ اسمها جاءت في معجم البلدان:

**فأرضُ قَمعستانِ جاءَ ذِكرُها / في مُعجمِ البُلدانِ ؟ وَأنَّ من أهمّ صَادراتِها / حَقائباً جِلديّةً / مَصنُوعَةً من جَسَدِالإنسانِ** (قباني، 1999م: ج .6: 31).

وهل يستطيع الشاعر أن يأتي بمكان يدلّ على الاستبداد والقهر أكثر من «قمعستان» الذي يحوّل حاكمه فيه جلد الإنسان إلى الحقائب؟ والطريف أنّ قباني رسم حدودا جغرافية لمقمعستان، وهو يمتد من شمال إفريقيا إلى الدول الواقعة في الخليج الفارسي:

**هل تَطلبُونَ نبذةً صَغيرةً عن أرضِ قَمعستان / تلك التي تَمتدُّ من شِمال إفريقيا / إلى بِلادِ نَفطستان / تلك التي تَمتدُّ مِن شَواطئ القَهر إلى شَواطِئ / القَتلِ** (نفس المصدر: 32).

ويصف الشاعر حالة الإنسان العربي في بلاد قمعستان بأنه كان يحلم يوما أن يصل إلى مرتبة الحيوان، ويخاف من الجلوس في المقهى ويخاف أن يدخل المسجد:

**هل تَعرفُونَ مَن أنا / مُواطنٌ يَسكُنُ في دَولةِ قَمعستان / مُواطِنٌ / يَحلمُ في يَومٍ من الأيّامِ أن يُصبحَ في مَرتبةِ الحَيوانِ / مُواطِنٌ يَخاف أن يَجلسَ في المقهَى .. / مُواطنٌ أنا من شَعبِ قَمعستان / أخافُ أن أدخلَ أيَّ مسجدٍ / كي لا يُقال إنّي رجلٌ يُمارسُ الإيمانَ / كي لا يَقولَ المخبرُ السِّريّ / إنّي كُنتُ أتلُو سُورةَ الرَّحمنِ** (المصدر نفسه: 33).

**د . المنفى**

إنّ شعر المنفى وصورته في شعر قبّاني ترتبط كلّه بمحور الوطن، وهو يختلف عن الشعور بالغربة والحنين إلى أرض الوطن لدى الشعراء الذين جرّبوا الحياة في المنفى. لأنّ قباني لم يعش في المنفى وكانت حياته في إنجلترا وسويسرا منفى اختياريا لا قسريا. هذا لا يعني أنّ الحنين إلى أرض الوطن لم يكن في شعره الذي أنشده في إنجلتر وسويسرا، بل لاحظنا نماذج منه في حديثنا عن دمشق فيما مضى. بل نريد أن نقول إنّ الوطن نفسه أصبح للشاعر بمنزلة منفى عانى من الحياة فيها لأسباب سياسية مختلفة. له قصيدة بعنوان «كتابات على جدران المنفى» يقول فيها:

**إنَ مباحثَ الأمنَ الدّولةِ / تُلقي القَبضَ على الأحلامِ / وَتُرسِلُ أهلَ العِشقِ إلى المَنفى / إنَّ مباحثَ أمنِ الدّولة تطلبُ منّا / أن لا نَضحَكَ / أن لا نبكِيَ / أن لا نَنطِقَ / أن لا نَعشِقَ / أن لا نُنجب ولدا / أن لا نُرسلَ أيّ خطاب / أن لا نَقرأ أي كتاب / إلا عن أحوالِ الطقسَ وإلا عن أسرارِ الطبخِ / فتلكَ قوانينَ المَنفى.** (المصدر نفسه: 196.193).

يظهر من المقطوعة السابقة أنّ الوطن أصبح منفى كبيرا بالنسبة للشاعر لأنّه فقد المكان وشعر فيه بالغربة والتشرد. رسم قباني صورة هذا المنفى / الوطن / المكان وهي صورة ضبابية تفقد مقومات الحياة منها الضحك، والبكاء، والنطق، والعشق، وإنجاب الولد، وكأنّ الشاعر يقول إنّ المنفى هو فقد هذه المقومات، ونفي الوطن يستلزم وجود المنفى. ولذلك تتجه الصورة إلى تجسيد حالة الضياع في الوطن / المنفى ونستند هذا التوجيه الدلالي إلى مجموعة معطيات لغوية تحمل المعنى إلى التيه. هذه المعالم والأحداث تعكس حالة الاغتراب في الوطن / المنفى وشدة وقعها على ذات الشاعر إذ يمثل جميعها مسارات نحو المنفى. فالوطن أصبح في تجربة نزار انعكاسا لانفصام العلاقة مع المكان. تلخص هذه الصورة هاجس الرحيل الذي يطارد الشاعر مادامت الأمكنة لا توفّر له الاستقرار ودفء الانتماء.

والخيمة على بعده المغلق جزء من صورة المنفى. وفي سياق حديثه عن القضية الفلسطينية قال:

**كلفنا ارتجالنا / خمسين ألف خيمة جديدة** (المصدر نفسه: 481).والخيمة هنا ارتبطت بدلالتها الرمزية على النكبة الفلسطينية والأبعاد المأساوية التي يعيشها الشعب الفلسطيني و«لكن الأهم في موضوعة الخيمة أو المنفي لا يمكن في مأساوية الحدث في حدّ ذاته إذ أن جمالية المكان تتجاوز ذلك إى استلهام المكان وتحوله في الخيال الشعري إلى عنصر فاعل في إنتاج الصورة» (مجناح، 2007م: 243).

**هـ . فلسطين**

أثّر المكان الفلسطيني في تجربة الشعراء العرب السياسيين، وأخذ موقعا فاعلا ومؤثرا باعتباره جزءا من الهوية والانتماء للأرض. والمكان الفلسطيني في شعر قبّاني لم يكن مجرد إطار يرسم فيه الشاعر الخريطة الجغرافية لفلسطين بل هو ترتبط في إنتاجها للدلالة بالوقائع التاريخية والنفسية والاجتماعية.

لم يكن المكان الفلسطيني في شعر نزار غير قضية فضاء سياسي، ولمّا كانت المسأله هكذا، فإنّ الدلالة المرتبطة بالمكان في شعره لا تغفل بعدها السياسي والثقافي والحضاري. إنّ معاناة فقد المكان / الأرض الفلسطيني تحوّلت إلى معاناة الإحساس بفقد معنى الحياة، وهو ما يحرّض الإنسان العربي في استعادتها والتمسك بها. هذا الشعور يبدو بوضوح في المقطوعة التالية:

**مِن أينَ يَأتينا الفَرَحُ / وَنحن مِن يَومِ خَرجنا من فلسطينَ / وَمن ذَاكرةِ اللَّيمونَ والخُوخِ / تَحوَّلنا إلى رَماد** (قباني، 1999م: ج 6: 566).

والقدس عاصمة فلسطين المحتلة من الأمكنة التاريخية والدينية التي لها حضور بارز في شعر قبّاني، وهي أكثر المدن الفلسطينية ذكرا في شعره. تشكل مدينة القدس خلفية مهمة لدى الشاعر لما تحمله من أبعاد دينية وحضارية وتاريخية. وأهم دلالة أعطاها الشاعر هي القداسة والطهارة عندما يهجو الحكّام العرب على تورّطهم في احتلالها. يقول:

**تَمَرَّغْ يا أميرَ النفطِ ../ فوقَ وُحُولِ لَذَّاتِكْ / كَمِسمَحَةٍ.. / تَمَرَّغْ في ضَلالاتِكْ / لكَ البترولُ، فاعصُرْهُ /على قدمي خليلاتِكْ / .. فَبِعتَ القُدسَ../ بِعتَ اللهَ..**

جعل الشاعر تمرّغ حكّام الدول العربية المتصدرة للنفط في ملذّاتهم، الباعث الأولى سقوط القدس. هذه المدينة لم يكن عند نزار رقعة جغرافية احتلّتها الصهاينة بل هي تمتاز بموقعها الديني وقداستها عند المسلمين. ولا شك أنّ استحضار مدينة القدس هنا، يولي أهمية للبعد الإيديولوجي الماثل فيه.

استحضر الشاعر في قصيدته المعنونة بـ «فتح» عدّة من الأمكنة الفلسطينية منها القدس وغزّة قائلا:

**يا فَتحُ يا حصاننا الجميلا / يَحمِلُ في غُرَّتِهِ بِيسانَ والجليلا / وَغَزَّةَ، والقُدسَ، والطيورَ، الحُقُولا/ وَيَحمِلُ البِحارَ في نظرتِهِ / ويحملُ السُّهُولا** (نفس المصدر: 144).

لقد شبّه الشاعر حركة فتح الإسلامي بالحصان الجميل الذي يحمل على جبينه عديدا من المدن الفلسطينية مثل بيسان، الجليل، غزّة والقدس. تتوالى هنا البنية المكانية في النص عبر تنوعات المدن وهي تنتج خطابا واحدا يعمد الشاعر إلى سرد خارجي يرتب الأمكنة دون استنطاقها بل إن مهمتها الوحيدة المسندة هي إيهام القارئ بالواقع.

حاول نزار في شعره عن فلسطين أن يرسم سبيلا إليها ألا وهي سبيل النضال والجهاد المسلّح، فلذلك يخاطب ثوّار القدس والجليل: ليؤكد خيار المقاومة والنضال:

**يا أيُّها الثُّوّار / في القُدسِ وَالخَليل / في بِيسانَ وَالأغوار / في بَيت لَحم حيثُ كنتم أيُّها الأحرارُ / تَقَدّموا / تَقَدّموا / فَقِصَّة السَّلام مَسرحيَّة / وَالعَدلُ مَسرحيةٌ / إلى فِلسطينَ طريقٌ واحدٌ / يَمرّ من فُوهةِ بُندقيّة.**

استحضر الشاعر في المقطوعة السابقة القدس والخليل وبيسان والأغوار، وقدّم القدس على كلّها لأوليتها وقداستها.

**لو أنَّهم حَملوا إلينا / مِن فلسطينَ الحَزينةِ / نَجمةً / أو بُرتقالةً / لو أنَّهم حَملوا إلينا / مِن شَواطِئ غَزّة / حَجَرا صَغيراً / أو مَحارَه** (المصدر نفسه: 76).

لقد مثّل الحجر رمزا يدلّ على الصحوة واليقظة التي تؤجج الثورة وتحرك المشاعر فقد عدَّ الحجر رمزا للمكان الفلسطيني المقاوم. فصورة المكان الفلسطيني ربطها الشاعر بالحجر ويمثل هذا الارتباط القوي والوثيق على قدرة الشاعر على استدعاء المكان وعرضه بواقعية.

لعلّ قصيدة «القدس» أهم قصيدة في شعر قباني استلهم فيها مدينة القدس وارتقى بها إلى مستوى رمزي ودلالي. والشاعر يتمنّى عودة الفلسطينيين إلى موطنهم المحتلّ

**بَكَيتُ.. حَتَّى انتهتِ الدُّموعْ / صَلَّيتُ.. حتى ذابَتِ الشُّموعْ / رَكَعتُ.. حتى مَلَّني الرُّكوعْ / سَأَلْتُ عَن مُحَمَّدٍ .. / فِيكِ، وعن يَسُوعْ / يا قُدسُ. يا مدينةً تفوحُ أنبياءْ / يا أقصرَ الدروبِ بينَ الأرضِ والسماءْ / يا قُدسُ..يا منارةَ الشَّرائعْ / حَزِينةٌ عيناكِ يا مَدِينةَ البتولْ / حَزِينةٌ مآذنُ الجوامعْ / يا قُدسُ.. يا مدينةَ الأحزانْ / يا دَمعةً كبيرةً تجولُ في الأجفانْ / مَنْ يوقفُ العدوانْ؟ / عليكِ، يا لؤلؤةَ**

**الأديانْ / مَنْ يغسلُ الدِّمَاءَ عن حجارةِ الجدرانْ؟ / يا قُدسُ.. يا مَدينتي / يا قدسُ.. يا حَبيبتي / غَدَاً..غداً..سَيُزهِرُ الليمونْ / ... وَتَرجعُ الحمائمُ المُهاجِرَه / إلى السُّقوفِ الطاهره / ويرجع الأطفال يلعبونْ / ويَلتقي الآباءُ والبنونْ / على رُباكِ الزَّاهرهْ..** (المصدر نفسه:163.161).

نلاحظ هنا كيف اتخذت القدس بعدا حيويا في النص إذ أنّ كلّ المتغيرات النفسية والوصفية والتاريخية تتمحور حولها. يبكي الشاعر من آلام احتلال القدس مشيرا إلى بعده التاريخي المفهوم من «منارة الشرائع، مدينة البتول، مدينة الرسول» ثمّ يتحدث عن قضية معراج الرسول (ص) الذي حطّ بالقدس ليلة معراجه، وذلك يدلّ عليه عبارة «يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء» وبهذا عبر الشاعر عن الأبعاد الدينية إلى الأبعاد الوطنية والسياسية قائلا: «من يوقف العدوان عليك يا لؤلؤة الأديان، من يغسل الدماء عن حجارة الجدران». وأخيرا يبشّر بعودة أصحاب هذه الأرض المقدسة إليها لبداية حياة جديدة أمنة فيها.

**3 . المكان ودلالاته التاريخية والدينية**

استدعي نزار قباني في بعض قصائده كربلاء ومحنة أهل البيت خاصة الإمام الحسين (ع) فيها، فأعطى لشعره دلالات دينية تاريخية. جدير بالذكر أنّ حادثة كربلاء تحمل في الوجدان الإنساني معاني التضحية في سبيل المثل العلياء، كما أنها تحمل معاني الأسى والحزن، واستدعاء قباني لكربلاء ومأساة أهل البيت فيها يأتي غالبا عندما يتحدث عن الحرب الأهلية في لبنان، واحتلال أرض فلسطين، والاستبداد الذي يرزح تحت أغلاله الإنسان العربي في أراضيه. قال نزار في حادث اغتيال بلقيس:

**بلقيسُ / إن هم فجروكِ .. فعندنا / كلّ الجنائزِ تبتدي في كربلاء / وتَنتهي في كربلاء/ لن أقرأ التاريخ بعدَ اليوم** (المصدر نفسه: 52).

لقد ربط الشاعر الحرب الأهلية في لبنان ومقتل زوجته بحادثة كربلاء التاريخية التي استشهد فيها الإمام الحسين (ع) على أيدي الطغاة الظلمة. هذه الحادثة تتكرر كلّ يوم في العالم الإسلامي، لأنّ الأمة الإسلامية لا تأخذ العبرة منها ويتجدد كلّ يوم كربلاء جديدة «وها هو ذا يتوق إلى رمز يجسد آماله وألامه وطموحه في الخلاص من الواقع المرير، فوجده في إمام ثائر كتب ملحمة البطولة بدمه يوم صرخ في وجه الجلادين: هيهات منا الذلة، فكانت ملحمة كربلاء التي تزداد تألقا وتوهجا عبر العصور» (القواسمة، 2009م: 86).

كربلاء / المكان في شعر قباني بأبعاده الدينية التاريخية رمز للتعبير عن مشاعر الحزن والأسى، والرفض والدعوة للرد على الهزيمة والثأر من المعتدين:

**سَكَنَ الحُزنُ كالعَصافير قَلبي / فالأسى خَمرة وقَلبي الإناءُ / أنا جرح يَمشي على قَدَميه / وخيولِي قد هَدّها الإعياءُ / فجراحُ الحسينِ بعضُ جراحي / وبِصدري من الأسى كربلاء / وأنا الحزنُ من زمان صَديقي / وقليل في عصرنا الأصدقاء** (قباني، 1999م: ج .6: 395).

تعدّ قصيدة راشيل وأخوتها من القصائد المهمة التي وظّف قباني فيها المكان الديني / كربلاء في حديثه عن مذبحة قانا فنراه يشبه تلك المجزرة بكربلاء ويسمّيها كربلاء الثانية:

**كلّ من يكتُبُ عن تاريخِ قانا / سيسمّيها على أوراقه كربلاءَ الثانية** (قباني، 1999م: ج .6: 85).

تمثّل حادثة كربلاء رمز المأساة في الشعر الإسلامي والعربي، ويمكن للقارئ من خلال هذه السطور الشعرية أن يدرك عمق المأساة التي جرت على الشعب الفلسطيني في قانا، فاستطاع قباني باستحضار صورة كربلاء أن يعطي لها دلالة التضحية والفداء. هذه المأساة والمعاناة لم تكن حصراعلى الشعب الفلسطيني، بل عمّمه الشاعر على تاريخ العرب كلّه:

**تاريخُنا كلّه مِحنةٌ / وَأيامُنا كُلّها كَربلاء** (المصدر نفسه: 258).

ويقول في قصيدة عندما يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان:

**مُواطِنونَ نحن في مَدائنِ البُكاء / قَهوتُنا مَصنُوعة مِن دَمِ كربلاء / حِنطتُنا مَعجونةٌ بلحمِ كَربلاء / طعامُنا شَرابنا / عاداتُنا راياتُنا / صيامُنا صَلاتُنا / زُهورنا قُبورنا / جُلودنا مَختومةٌ بخَتم كربلاء** (المصدر نفسه: 103).استدعى الشاعر حادثة كربلاء في تصوير الصراع بين المحتلين والمشردين الفلسطينيين. حاول نزار من خلال هذه السطور أن يعبّر فيها اغتراب الفلسطينيين الذين لا يجدون وطنا لهم، واستدعى من خلال ذلك كربلاء التاريخية وجسّدها في كلّ شئ حتّى في دمه وطعامه وشرابه فأصبحت كربلاء فكرة رئيسة، لا مجرد ذكرى تستدعى بين ماض وحاضر.

ولم تكن الأماكن التي ذكرناها هي المهيمنة على المتن الشعري العربي بل كانت بجانبها أماكن ثانوية أولاها الشعراء الاهتمام ومنها المقهى والبيت والسجن والسوق والشارع والقبر ... وهذا الاهتمام راجع إلى عناية الشّعراء بالأشياء البسيطة التي تدخل في حياتهم اليومية والتي تشكل وجدانهم وعلاقاتهم الشخصية مع الآخرين ولأنّ من خلالها يتمّ النفاذ إلى أعماق النفس وأعماق الغير.

**نتائج البحث**

وقد أظهرت هذه الدراسة:

- أنّ المكان لم يكن حدثا طارئا في شعر نزار قباني إنما هو رؤية خاصة على حدّ قوله. هذه الرؤية تجلّت في ثلاثة أبعاد رئيسة أي: النفسية والعاطفية، الوطنية والسياسية، والدينية والتاريخية. والمكان قد تحوّل في شعره إلى رموز فنية حملت دلالات منها: دلالة دمشق إلى الحنين والاشتياق، دلالة بيروت إلى الحبّ، دلالة كربلاء إلى المقاومة أمام الظلم والطغيان، ومأساة الدول العربية وعلى رأسها فلسطين المحتلة، دلالة القدس إلى المقاومة والقداسة، دلالة السرداب والمنفى إلى انحسار الحرية في الدول العربية، و.... ساهمت هذه الرموز في التشكيل الجمالي لنصوصه الشعرية.
- إنّ الوطن / المكان في شعر قباني لم يتّخذ بعدا جغرافيّا محددا، بل حمل دلالات سلبية عديدة؛ إذ حاول من خلاله إلى انتماء أسمى جسّده في الحرية. والوطن / المكان يصبح مفككا منقسما كلّما فقد مقومات الحرية.
- جادل الشاعر مع المكان في موضعين اثنين: الأوّل، مع بيروت خاصّة بعد بداية الحرب الأهلية في لبنان، وبعد مقتل زوجته بلقيس في حادث انفجار السفارة العراقية فيها، والثاني مع الوطن / المكان المفتوح إذا أحسّ أنّه يعاني من الاستبداد والقمع وموت الحريات.

**المصادر**


1 . أبو العمرين، جيهان عوض، (2014م)، جماليات المكان في شعر تميم البرغوثي، جامعة قطر، كلية الآداب والعلوم.

2 . إسماعيل، محمد السيد، (2002م)، بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، دولة الإمارات العربية المتحدة، دائرة الثقافة والإعلام.

3 . اعتدال، عثمان، (1988م)، إضاءة النص، بيروت: دار الحداثة.

4 . باشلار، غاستون، (1984م)، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

5 . حيدوش، أحمد، (2001م)، شعرية المرأة وأنوثة القصيدة . قراءة في شعر نزار قباني . دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

6 . خرفي، محمد الصالح، (2006م)، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، الجزائر: جامعة منتوري.

7 . عقاق، قادة، (2001م)، دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

8 . قباني، نزار، (د.ت)، الرسم بالكلمات، بيروت: منشورات نزار قباني.

9 . قباني، نزار، (1974م)، ملاحظات في زمن الحب والحرب، بيروت: منشورات نزار قباني.

10 . قباني، نزار، (1999م)، الأعمال السياسية الكاملة (الجزء السادس)، الطبعة الثانية، بيروت: منشورات نزار قباني.

11 . قباني، نزار، (1978م)، كل عام وأنت حبيبتي، بيروت: منشورات نزار قباني.
12 . القواسمة، هشام عطية، (2009م)، الرؤيا والتشكيل: دراسة في شعر نزار قباني، جامعة مؤتة.
13 . لوثمان، يوري، (1986م)، مشكلة المكان الفني، ترجمة: سيزا قاسم درزا، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة: الجامعة الأمريكية.
14 . النابلسي، شاكر، (1986م)، الضوء واللعبة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
15 . النصير، ياسين، (1980م)، الرواية والمكان . دراسة في فن الرواية العراقية، بغداد: دار الحرية للطباعة.
16 . مبيض، عامر؛ كزرون، محمد، (1998م)، نزار قباني، رحيل قارة شعرية، متابعة وتحرير، سوريا.
17 . مجناح، جمال، (2007م)، دلالات المكان في الشعر الفلسطيني المعاصر بعد 1970، باتنة، الجزائر: جامعة الحاج لخضر.
18 . منير، وليد، (1997م)، جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

**المجلات**

1 . بسام علي، أبو بشير، «**جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة**»، مجلة الجامعة الإسلامية، جامعة الأقصى . غزة، المجلد 15، العدد الثاني.
2 . بيك، مها خير، «**مركزية الانتماء الوطني في شعر نزار**»، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 431، آذار.